

تمهيد :

إن المكانة التي احتلها صالح باي في تاريخ قسنطينة والسمعة التي اكتسبها بين حكام الجزائر في العهد العثماني، والشعبية التي تمتع بها في الأوساط القسنطينية خاصة والشرق الجزائري عامة، تدفع الباحث إلى الاهتمام بأحداث حياته ودراسة جوانب شخصيته، وإلقاء الضوء على أعماله في شتى المجالات، وذلك حتى يتبوأ المكانة اللائقة بجانب الشخصيات الجزائرية التي زخر بها ماضي الجزائر المجيد خاصة أثناء العهد العثماني¹.

فصالح باي عاش حياة حافلة تميزت باختلاف مراحلها وتباين فتراتها، فقد كانت أولها مرحلة الطفولة والشباب التي عاشها بمسقط رأسه تركيا ، أما المرحلة الثانية من حياته فقد ارتبطت أحداثها بالجزائر حيث التحق بالجيش العثماني ، أما المرحلة الثالثة والمهمة في حياته هي التي قضاها على رأس البايلك في قسنطينة² ، والمرحلة الرابعة والأخيرة هي مرحلة نهاية حكمه و وفاته.

¹ ناصر الدين سعدوني : أبحاث و دراسات في تاريخ الجزائر في العهد العثماني ، ط1 ، دار الغرب الإسلامي ، الجزائر 1988م ، ص 287.

² Louis la concord : l'empone ottomane du nord Africain Golirard , Paris , 1997, p 230 .

المبحث الأول: نشأته

المطلب الأول : مولده

هو صالح بن مصطفى ولد بمدينة أزمير على ساحل بحر ايجه غرب الأناضول سنة (1137هـ / 1725م) من أسرة متوسطة الحال¹ ، عاش سنواته الأولى بصفة عادية ، وفي عام 1755م تسبب في مقتل أحد أقربائه خطأ ، وحتى يتفادى العقاب أرغم على الفرار من بيته وبلده وعمره لا يتجاوز ستة عشر سنة وخوض مغامرات البحر ، نزل بميناء الجزائر ، مقر الداى باشا الإيالة الجزائرية² .

وبعد استقراره بالجزائر عمل بمقهي الأوجاق يساعد صاحب المقهى ، ولقد اضطر إلى هذا العمل نظرا لصغر سنه ، وعدم خبرته بالحياة ولجهله بأوضاع البلاد إلا انه سمح لصالح باي أن يتعرف على واقع الجزائر ويتطلع على طبيعة الحكم وأسلوب الإدارة السائدة بها آنذاك كما سمح له هذا العمل من التعرف على الكثير من الأتراك في مجلس الأوجاق الذين لم يبخل بمساندته فيما بعد للحصول على إذن من مجلس الديوان يسمح له بالانخراط في فرقة الانكشارية و الالتحاق بعد ذلك بحملة الشرق السنوية المتوجهة إلى قسنطينة قصد

¹ أبو عمران الشيخ و ناصر الدين سعيدوني : معجم مشاهير المغاربة ، إعداد فرقة البحث العلمي جامعة الجزائر المؤسسة الجزائرية للطباعة ، 1995م ، ص331

² محمد الصالح ، بن العنتري : فريدة منسية في حال دخول الترك بلد قسنطينة واستيلائهم على أوطانها أو تاريخ قسنطينة، (مراجعة وتقديم وتعليق يحي بوعزيز)، دار هومة ، الجزائر ، 2007م ، ص 75

المساهمة في تعزيز الحامية التركية بها والمشاركة في جمع الضرائب من الأرياف¹.

المطلب الثاني : توليته

بدأت شخصية صالح باي تبرز أمام الملأ وكذلك شجاعته خاصة وأنه يشارك في حملة الباي ازرق عينه ضد تونس ، ومصادقته لأحمد القلي* (أحمد بن علي التركي) الشهير بالقلي ، لأنه تولى مدينة القل في عهد الباي (ازرق عينه)** ، ومرافقته لأحمد القلي في مهامه عندما كان هذا الأخير مسؤولاً على البريد (باش سيار) ، وبعد وفاة ازرق عينه ، عينه القلي على رأس البايك الشرق ، فتوطدت العلاقة بينه وبين صالح باي وأصبح مساعده ورفيقه ، وأصبح في الواجهة بجانب الباي الجديد².

وهكذا استمر مسار صالح باي بن مصطفى في اتجاه الصعود نحو المراتب العليا وذلك باحتكاكه بالباي الحكم لشرق البلاد ، وقد تميز بمهارته العسكرية وحسن تدبيره في الحملات

¹ ناصر الدين سعيدوني : دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر العهد العثماني ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1984م ، ص 60 .

* أحمد القلي : كان باياً على قسنطينة (1756 - 1771م) و سمي القلي لأنه كان آغا على مدينة القل، للمزيد من المعلومات أنظر: محمد الصالح ، بن العنتري ، المصدر السابق ، ص 61 .

** أزرق عينو: اسمه حسن (1754 - 1756) ، اشتراك في غزو تونس و لعب دور بارز فيها كما اهتم بمدينة قسنطينة و جدد أجهزتها ، و شجّع الصناعة ، للمزيد من المعلومات أنظر: محمد الصالح ، بن العنتري ، المصدر السابق ، ص 57 .

² فاطمة الزهراء قشي : مرجع سابق ، ص ص 89 - 90 .

الموسمية للمحلة* وفي المعارك ضد بايات تونس ، حيث تقلد المناصب الواحدة تلو الأخرى ، وهذا ما ذكره صاحب أم الحواضر في قوله : >> وكانت عادة الترك في سابق زمانهم أنه لا يرتقي لوظيفة الباي سوى ، المعروف بالحروب والشجاعة وحسن التدبير والسياسة ، وبذلك كان أمرهم في الزيادة والاستقامة <<¹.

لكن سرعان ما استقر في الوظائف العليا حيث كلفه الباي أحمد القلي بقيادة قبيلة الحراكمة بالأوراس عام 1762² لمدة ثلاث سنوات ، وهذه القيادة كانت تستند عادة إلى أهم شخصية بالبايلك بعد الباي، وذلك لشدة صعوبة هذه القبيلة ، ولوفرة المداخل التي كانت توفرها لخزينة الدولة ، وقد بقي صالح باي في وظيف قيادة الحراكمة ، واكتسب من خلالها حنكة ودراية في تسيير الأمور الإدارية ، ومعالجة المهام العسكرية، بعدها تولى منصب خليفة الباي بقسنطينة الذي ظل يشغله مدة 6 سنوات (1765م - 1771م)³ ، كان فيها نعم السند لصهره الباي أحمد القلي ، وقد ناب عنه في تقديم العوائد الفصلية إلى الداى محمد عثمان باشا* ، وأثناء ذلك اكتسب صالح باي ثقة وتقدير الداى، وهذا ما ساعده على الارتقاء إلى منصب الباي ، إثر موت صهره أحمد القلي في صيف (1771م - 1185م) ،

* وهي الفرق العسكرية .

¹ محمد المهدي بن علي شغيب : أم الحواضر في الماضي والحاضر تاريخ مدينة قسنطينة ، مطبعة البعث ، قسنطينة ، الجزائر 1980م ، ص 374 .

² ناصر الدين سعيدوني: أبحاث ودراسات ، المرجع السابق ، ص 287 .

³ يحي بوعزيز: المرجع السابق ، ص 63.

** محمد عثمان باشا: كان دايا على الجزائر، لقب بالمجاهد حكم من (1179هـ - 1205هـ) / (1766م - 1791م)، للمزيد من المعلومات أنظر: أحمد توفيق المدني : محمد عثمان باشا داي الجزائر (1766/1791م) سيرته، حروبه أعماله ، نضام الدولة ، الحياة العامة في عهده ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1986م، ص 133 .

وهنا تبدأ صفحة جديدة في حياة صالح باي مليئة بالمآثر والأعمال العظيمة التي مازالت إلى حدنا اليوم تشهد له بالعظمة .

لقد أثبت صالح باي قدراته في تسيير شؤون الرعية والتزامه بالمشروعية باحترامه أوامر الباي ومراعاة مصالحه وهذا ما جعل القلي يقترحه خلفا له وهو ما جعل الداوي محمد عثمان باشا 1791/1766م بتوليته بايا على قسنطينة سنة 1771م¹.

المطلب الثالث: خصاله

اشتهر صالح باي شهرة واسعة وذاع صيته في مختلف أنحاء البلاد وكان عصره في الناحية الشرقية عصر نهضة ورخاء وانتعاش ، وأصبح يدير أمور مملكته وكأنه الملك المستقل فيها حيث قال عنه شارل فيرو : >> الحاكم الأكثر لفتا للانتباه بين حكام قسنطينة كان نشيطا ومحاربا وإداريا <<² ولم تحدثه نفسه مرة بالانفصال عن مركز السلطة في الجزائر، وبقي طيلة أيام محمد عثمان باشا حافظا على عهد الولاء والطاعة ، دافعا ما عليه من إثارات بغاية النظام وقد شارك مشاركة فعالة مع قومه في دحر قوات الإسبان والقضاء عليها عندما حاولت قهر مدينة الجزائر .

¹ أحمد توفيق المدني :المرجع السابق ، ص 131.

² L.charles,feraud : ((les ben dgellab sultans de tougoart)) , revure africine ,

N°24 ,1987 ,P109 .

وهاهو مؤلف مجهول في كتابه تاريخ بايات قسنطينة يقول: « كان رحمه الله حسن

السيرة، صاحب حق وعدل، تحبه جميع الأوطان»¹ ، كما أثنى مبارك العطار عليه

بقوله: «...حسنت أيامه، وبلغ ما لم يبلغه من هو أكبر منه من ولاية تونس والجزائر،...

عمر الوطن، وسعدت الناس في دولته،... وأخباره مشهورة، وصدقاته مأثورة»²

ولقد أشاد بخصاله صالح العنتري ، فوصفه >> بأنه رجل عاقل له سيرة مليحة

وسياسة مستحسنة حميدة يسمع كلام الشاكين وينصر المظلومين <<³ ويتضح لنا هذا

من خلال أعماله ومنجزاته ومآثره.

المبحث الثاني: أعماله الحربية

المطلب الأول: حملاته الداخلية

لم تختلف أعمال صالح باي في إخضاع بايلك الشرق عن تلك التي بذلها الباي محمد

الكبير في الغرب والتي تمثلت في إخضاع الجهات الممتنعة والقبائل المتمردة .

¹ مجهول: المصدر السابق؛ ص 42.

² مبارك العطار: تاريخ حاضرة قسنطينة ، (تحقيق نور الدين عبد القادر) ، الجزائر ، 1956 ، ص 98

³ محمد صالح بن العنتري : مصدر سابق ، ص 75 .

حارب الزواوة 1772م ، وتوسع في حركته نحو الجنوب والغرب حتى وصل إلى

الهضاب العليا الوهرانية لإخماد تمرد قبائل أولاد نايل سنة 1773م ، الذين شقوا عصا

الطاعة في وجه الداوي بالعاصمة التي قال عنها نقيب الأشراف الزهار ((أعلنت قبائل أولاد

نايل التي تمتد أرضها بين مسيلة ، وبوسعادة والأغواط والجلفة العصيان))¹ ففتك

صالح باي بالكثير منهم وأدبهم وأرغمهم على الطاعة .

وقمع عصيان أولاد عمور ، لإعلانهم العصيان والعداء ضد داي الجزائر سنة 1785م ،

وأقر سلطة الدولة بزنيعة و أفلو و تاجموت ، والأغواط وكذلك دشرة الهيميلة التي الحق بها

العقاب الشديد بقتل مائة رجل منها ، وتعليق رؤوسهم على الجدران .

كما شن عدة حملات على الهضاب العليا القسنطينية أخضع أثنائها قبائل الزمول

والسقنية جنوب قسنطينة ، وقد تمكن صالح باي أثناءها من فرض المغارم الكثيرة وقتل

العديد من الممتنعين ، ومهاجمة أولاد عاشور بفرجيوية سنة (1776_1781م) المتكررة والحد

من تطلعات شيخهم محمد الشلغوم ، بسبب عصيانهم و امتناعهم عن الاعتراف بسلطة

البايلك ودفع الضرائب² .

لأن شيخ فرجيوية محمد بن شلغوم بن الحاج استقبل حسن باشا ابن الباي السابق

وساعده للالتحاق بمدينة الجزائر ، فقام صالح بإرسال ثلاثة طوابير ضده للهجوم على

فرجيوية من ثلاث جهات إلا انه فشل ، ولكن الباي عاد من جديد بقواته إلى عين البيضاء ،

¹ احمد شريف، الزهار : مذكراته ، (تحقيق احمد توفيق المدني)، دار البصائر ، الجزائر ، 2009م، ص80

² ناصر الدين سعيدوني : دراسات وابحاث ، مرجع سابق ، ص61 .

لاستمالة أولاد ابن عاشور وإحداث الشقاق بينهم ونجح الباي في ذلك وقام بمنح التولية لمقورة بوطغان (صاحب السيف) وهو عم الشيخ شلغوم ، وبهذا أصبحوا يدمونه رغم

الانقلابات التي كانت تعود أحيانا¹ .

وبالإضافة إلى هذه الحملات كانت حملات أخرى خاصة ضد شيوخ الزوايا مثل زاوية الشيخ سيدي عبيد في بلاد الحناشنة ، والتي كانت تتمتع بشهرة عظيمة، وكثيرا ما يفخر بثرواتها وخاصة بقطعان إبلها الكثيرة²، وحتى يحكم صالح باي سيطرته على القبيلة ويتمكن من إخضاعها سعى إلى التحالف مع إبراهيم بوعزيز شيخ الحناشنة، فأرسل إليه باش يسار بورنان بن زكري لينفق معه على الوسائل التي ينبغي اتخاذها لتنفيذ الخطة المدبرة، وهي الهجوم على القافلة المحملة بالحبوب والموجهة إلى قبيلة النمامشة*، المتمردة ضد سلطة الباي ، ولم يتمكن أفرادها من رد الهجوم، ففروا واحتجرت الإبل بحمولتها ورجع ابن زكري إلى قسنطينة وتقدمه هذه الغنيمة البالغة ، وخرج صالح باي لاستقباله وهناك بحرارة على غنيمته ، ودمغت الحيوانات بطابع البايك الخاص ، ثم ضمت إلى القطيع العام، ولم يجد شيخ أولاد عبيد حيلة أمام سكوت الباي عن شكواه سوى الدعاء عليه ، ونظم قصيدة ينشد فيها صراحة موت الباي، وامتل بورنان بوزكري أمام القضاء الجزائري وتمت

¹ L.charles ,feraud : ((ferdgioua et zour'a. notes hisrtoriques sur la province de constantine)) , revue africaine, n° 22 ,1878 ,PP6-7

² Mercier.E : Histoire de Constantine, édition Braham Constantine 1903, p 285

* النمامشة: قبائل قوية كانت تسكن غرب تبسة و يعين الباي لهذه القبائل قائد يختاره بنفسه، و يقرأ لها حساب عند اتخاذ القرارات، أنظر صالح نور: مساهمة في دراسة بعض الجوانب التاريخية للعهد العثماني بقسنطينة من 1837-1517، ر ماجيستير ، الجزائر 1978م ، ص 194 .

تبرأته بعد أن ألقى اللوم على صالح باي، وقد بعث داي الجزائر إلى صالح باي خفية يأمره بقتل بن زكري وتم تنفيذ الأمر فوراً بقطع أطرافه¹.

وفي السنة الموالية اخضع الباي قبيلة الحنانشة التي أعلنت تبعيتها لتونس ، بعد أن ضرب القوات التونسية المساندة لها .

وفي سنة 1788م قاد حملة عسكرية أخرى على الجنوب الشرقي بإقليم الزيبان ووادي ريغ ليحد من سلطة شيخ الذواودة محمد الذباح ، وشيخ تقرت فرحات بن جلاب لرفضهما دفع الضرائب ، بعد أن جمع الضرائب من : طولقة ، وبوشقرون ، والزعاطشة ، وسيدي خليل بوادي جدي ، ففرض حصاراً على تقرت دام أسابيع وقصصها إلى أن أرغم شيخها على الاستسلام ودفع الضرائب المطلوبة² ، وهذا بعد التفاوض مع شيخها في قرية زريبة الواد سنة 1789م بدخولها ضمن السلطة التركية بالحفاظ على نظامها الداخلي تحت إمارة عائلة بني جلاب .

ولم يهدأ له بال إلى ان ضم بني ميزاب للبلاد ، ولقد قبل بني ميزاب بهذا الانضمام بعد الاتفاق مع صالح باي على أن تبقى ميزاب حرة مستقلة تدير أمورها بنفسها مقابل دفع مقدار

¹ Vayssettes: Histoire de Constantine depuis l'invasion turque, jusqu'à l'occupation de 1535.1837 , p 373

² صالح عباد : الجزائر خلال الحكم التركي (1830/1514م) ، ط2 ، دار هومة ، الجزائر ، 2007م ، ص ص 177 - 178 .

من المال¹ ، إذن لقد كان الفضل الكبير لصالح باي في توحيد القطر الجزائري بحدوده الحالية حول السلطة المركزية الجزائرية .

وبالتالي نستنتج بصفة عامة أنه رغم المكانة الخاصة التي حظي بها شيوخ الزوايا وعلاقاتهم الجيدة مع البايات إلا أن هذه المكانة العالية لم تدم طويلا، خاصة على عهد صالح باي وذلك بظهور خلافات كان من أسبابها:

استحداث صالح باي لعدة أمور، أولها توحيد نظام الضرائب ، وهو ما أزعج من كانوا يستفيدون من الإعفاءات على عهد البايات السابقين²، وقد تسبب ذلك في نقص الموارد التي كانوا يحصلون عليها من عوائد أهالي الريف، وتعرضت أملاكهم للتغريم والمصادرة³ .

وبالتالي أحس شيوخ الزوايا بنوع من المنافسة لزواياهم خاصة بعد الإصلاحات التي أدخلها صالح باي في الإدارة بصفة عامة، والتعليم الابتدائي، خاصة المدرسة الكتانية والتي خصّها الباي بميزانية ، حيث كانوا يقومون بتعليم الطلبة القرآن الكريم، وأمور دينهم من سنّة وفقه، وكان الطلبة يقدّمون بعض المبالغ الرمزية أو الهدايا لشيوخ الزوايا، كل هذه الأسباب أثارت الحقد والغيرة والطمع والجشع في نفوس هؤلاء الشيوخ، الأمر الذي أدى بصالح باي إلى معاقبتهم وإقامة الحد لهم⁴.

¹ احمد توفيق المدني : مرجع سابق ، ص 138 .

² ناصر الدين سعيدوني: المرجع السابق ، ص 74.

³ فاطمة الزهراء قشي، قسنطينة المدينة و المجتمع ، ر. دكتوراه، ج2، جامعة قسنطينة 1998؛ ص105

⁴ H.M. Michel : l'institution militaire ottomane. puf, 1990,p p 117-120

المطلب الثاني : حملاته الخارجية

ونقصد بها رد الهجوم الخارجي والمتمثل في مشاركته في حملة ضد الكونت اوريلي oreilly ، وتأمين حدود البايليك في موقفه من باي تونس حمودة باشا .

إن الحملات الداخلية التي كانت يقوم بها صالح باي لم تشغله عن المساهم في الدفاع عن البلاد ، فشارك على رأس قوة بايليك قسنطينة في دحر الهجوم الاسباني على الجزائر بقيادة أوريلي الممتد من 30 جوان إلى 16 جويلية 1775م في عهد محمد عثمان باشا .

أمر صالح باي بتجميع قوات من حوالي 40 ألف تحت قيادة صهره عاشي حسين الغنابي حول مدينة عنابة ، لأنه قد كان تحقق من قدوم الحملة الاسبانية في طريق عودته بعد تأدية الدنوش* السنوية لداي الجزائر¹ ، فاتخذ مواقعه من الناحية الشرقية فيما بين الحراش والحميز و جنوب العاصمة الشرقي ويادر الهجوم على الاسبان .

امتاز فيها صالح باي بالشجاعة والدهاء وأصالة الرأي ، وقد تعرض لهذا نقيب الأشراف في قوله : >> جاء صالح باي قسنطينة من ناحية الواد وقدم أمام الاسبانيول الألوف من

* الدنوش هي حصة نقدية عينية يقدمها الباي للداي كل ثلاث سنوات ، عن كيفية حمل الدنوش إلى داي الجزائر ، راجع المزارى بن عودة : مصدر سابق ، ص 273
¹ صالح عباد : مرجع سابق ، ص 117 .

الإبل فلما قربت من المتارز ابتداء القتال <<¹ ، وذلك لأنه أمر بجمع كل التي كانت

بالمعسكرات لم يستثني منها بعيرا واحد

فحمل صالح باي قومه وعسكره على المتارز** وذلك أنه أمر بجمع كل الإبل التي كانت

بالمعسكرات لم يستثني منها واحدا ، وتوحدوا جميعا وأجهزوا على العدو² ، فوجدوا الكثير

من القتلى والجرحى والحقوا الخسائر الكبيرة بالاسبان .

وهذا لقيام صالح باي بوضع حيلة حربية ممتازة ساهمت في هذا النصر والقضاء على

الاسبان " فقد طلب بإحضار الصوف ووضعها فوق الجمال وعند اشتعالها تندفع الإبل نحو

خنادق الاسبان فداست خنادقهم وبذلك انهزموا"³ ، وقد اشتهرت هذه الواقعة بواقعة عام

الرمل لوقوع الاشتباكات فيها برمال الشاطئ الجزائري⁴

أما في ما يخص تأمين حدود البايليك المتمثل في موقفه من باي تونس حمودة باشا*

سنتي (1783-1787م)، لأنه في سنة 1781م اقتحمت بعض القبائل التونسية حدود

الجزائر في منطقة تبسة ، لأنها كانت فارة من قوات علي باي فاخترت الجزائر موطنا لها

¹ احمد الشريف الزهار : مصدر سابق ، ص 42 .

** المتارز : المراكز المحصنة

² سليمان الصيد: نفع الأزهار عما في مدينة قسنطينة من الأخبار ، ط1 ، المطبعة الجزائرية ، الجزائر ، ص 1994م ، ص 36 .

³ مجهول : مصدر سابق ، ص 10 .

⁴ احمد توفيق المدني : حرب ثلاثمائة سنة بين الجزائر واسبانيا 1492 - 1792م ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، د ت ، ص 505 .

* حمودة باشا : من أشهر ملوك العائلة الحسينية وكان السبب في عودة الحرب بين تونس والجزائر .

فطالب حمودة باشا بدفع تعويضات مالية لتلك القبائل إلا انه قوبل بالرفض فقاد قواته ليفاجئ تلك القبائل ويعاقبها ، فكان له صالح باي بالمرصاد ، فاتفق حمودة باشا مع علي دفع تعويض بمبلغ 25 ألف سكين في جوان 1784م¹ .

وبالإضافة إلى أن العلاقة بين الجزائر وتونس حينها كان يسودها نوع من التذبذب، والذي سرعان ما تحول إلى خلاف وصراع بعد الذي أقدم عليه باي تونس حمودة باشا، بمنع بعث حمولتين بحريتين من الزيت إلى الجزائر، ورغم تدخل السلطان العثماني فإن حمودة باشا رفض الرضوخ وقطع الدفع جملة وتفصيلاً² ، وبإيعاز من داي الجزائر الذي لم يخف استيائه مما حدث ، فوقف صالح باي وقفة ضد باي تونس والذي هو خير شاهد على حنكته السياسية وحسن تصرفه في مثل هذه القضايا ، هو أن صالح باي أصرّ على تقديم تعويضات ملائمة عن الخسائر التي كان قد أحدثها جند حسن الكبير قائد على باي تونس ، عند ملاحقته لقبائل تونسية استقرت جنوب تبسة هربا من تعسف علي باي تونس ، وكانت مقدار تلك التعويضات أربعين ألف سكين "sequins" * ، وهو مبلغ كبير من المال ، فتعجب حمودة باشا من هذا الطلب الغريب لقضية منسية ، وكاتب داي الجزائر يعلمه بذلك ويهدده بقطع جميع العلاقات معه إذا أيد باي قسنطينة³ ، لكن حمودة باشا لم ينتظر الرد من داي

¹ محمد صالح بن العنثري : مصدر سابق ، ص ص 76 - 77 .

² رشاد الإمام : سياسة حمودة باشا في تونس 1782 - 1814م ، منشورات الجامعة التونسية ، 1980م ، ص ص 385 - 386 .

* سقين: عملية متداولة في ايطاليا و هي من الذهب الصرف، و كانوا يطلقونها على العملة التونسية المسماة (محبوب) و يزن حوالي 3.50 غ ، أنظر رشاد الإمام : نفس المرجع، ص 352 .
³ رشاد الإمام : نفس المرجع ، ص ص 385 - 386 .

الجزائر وقاد فيلقا من الجيش وانتقل أولا إلى منطقة الجريد واقترب من الحدود ، وكان صالح

باي متواجدا مع زمالته في أرض القبيلة الهارية ** ، فأقدم على أمر لم يكن حمودة باشا

ينتظره ، حيث أرسل عددا من جنده لتحيته وقدموا له عددا من الخيول الجيدة هدية له ،

وفتحت هذه الالتفاتة الحسنة باب الأمل لحمودة باشا في إيجاد تسوية مرضية للخلاف الذي

طرا بين الجزائر وتونس ، بيد أن هذه التسوية لم تتم مثلما كان يتوقعها باي تونس ، إذا جاء

رد داي الجزائر صريحا ومفاده : " ديوان الجزائر أيد وساند صالح باي " حينئذ خرج حمودة

باشا على رأس محلة سنة (1199هـ - 1784م) نحو قسنطينة وسميت "بمحلة الخمس

بايات" *** وأثناءها كان صالح باي معسكرا مع جيشه على أراضي القبائل اللآجئة ، وقد

هنا زعيم القبيلة وبعث إليه بعض الخيول والهدايا ، فما كان أمام حمودة باشا سوى الإذعان

خاصة بعد اشتداد عدائه مع البنادقة ، خوفا من أن يقع في صراع على الجبهتين أوروبية و

جزائرية ، وانتهت هذه الأزمة في شهر جوان من نفس السنة بدفع ما قدر بـ 25000

محبوب (سقين)¹ إلى القبيلة التونسية والتي أصبحت تحت السلطة الجزائرية ، وبقي الأمر

هادئا بين البلدين إلى غاية مطلع 1202هـ - 1787م² ، ظهر نزاع آخر وكما هي العادة

تنسب فيه عادة القبائل القاطنة على الحدود التونسية الجزائرية ، فظهر النزاع مجددا نتيجة

** القبيلة الهارية : تطلق على قبيلة بوهران و معناها الخالية ثم أصبحت تطلق على الفرسان التابعين للدولة ووقع الإختيار على مكان قرب عين مليلة تتمركز فيه هذه الخيالة و أصبح معروفا باسم الزمول، أنظر : صالح زهر، مرجع سابق ، ص 186.

*** لأن حمودة باشا اصطحب معه كل من خاف أن يقوم بانقلاب ضده في غيابه ، أنظر رشاد الإمام : نفس المرجع ، ص 110.

¹ Vayssettes: op.cit. p 345.

² يحي بوعزيز ، المرجع السابق ؛ ص 63 .

متابعة صالح باي لبعض العشائر الجزائرية ، الخاضعة لحكمه والتي التجأت بدورها إلى الأراضي التونسية هروبا من المطالب المالية ، التي فرضها عليها عمال صالح باي ، وعندها تهيأ صالح باي لمهاجمة تونس وذلك باتهامه حمودة باشا بتحريضه لتلك القبائل ، فتوجه نحو تونس على رأس جيش ناهز "6000 محارب" ، ورغم استعداد حمودة باشا لصد هذا الهجوم بقوة قدر عددها "2000 تركي" و"3000 من الكراغلة" وكثير من الفرسان العرب ، إلا أنه ركن أخيرا إلى مهادنة صالح باي ، ودفع ما توجب عليه من التعويضات¹ ، وقد وصف هذه الأحداث أحد المؤرخين القسنطينيين المتأخرين بقوله : «...ولما انتهى إلى باي تونس بأن صالح باي نزل حيدرة مريدا استرجاع من فر من وطنه إلى تونس عظم عليه الأمر وخشي على نفسه فوجه إليه كاتبه ابن عبد العزيز... ثم بعد ذلك أجمع صالح باي وتحدث معه ووعد به بال جزيل وأمره صالح باي بأن يبلغ مكتوبه إلى باي تونس بأن يكون معينا لمن يرسله ليرجع الفارين من وطنهم فأنعم له بذلك ، ثم أن صالح باي بعد انفصال عبد العزيز من عنده ، وجه قريبه محمد خوجة العجمي لاسترجاع الفارين من بلد تونس ، وتوجه هو وكافة من كبراء الفرسان إلى بلد تونس...، فمكث هناك أياما واستحضر من أراد استرجاعه»² .

إلا أن حمودة باشا عاد مرة أخرى سنة 1787م واتهم صالح باي بأنه أرسل له جيشا لغزو تونس ، لأنه في ذلك الوقت هاجر عدد من سكان قسنطينة فجأة لتونس ، إلا أن

¹ ناصر الدين سعيدوني، المرجع السابق؛ ص 292 .

² ناصر الدين سعيدوني، المرجع السابق؛ ص291.

حمودة باشا وجد نفسه وجها لوجه مع قوات صالح باي ، خاف واستجاب لمطالب صالح باي بدفع تعويضات عن خسائر الحرب¹ .

المبحث الثالث : تنظيماته الاقتصادية والإدارية

المطلب الأول : الزراعة

يقول مرسي " عمل صالح باي بعد توليته على إستتاب الأمن، وإقامة علاقات تجارية وشجع الصناعات و الحرف كالدباغة والحيافة، وعمل على بناء طواحن في مختلف أرجاء المقاطعة وقام بعدة تجارب في ميدان الفلاحة"² .

فأصبح بذلك الشرق الجزائري المنطقة الأولى في الإنتاج الفلاحي، حتى أن صالح العنتري وصف الأوضاع بهذه العبارة "وملك الأملاك في كل البلاد وعم الخير كل العباد"³ ، كما يقول أحد الكتاب أيضا: " ... وكسب من الأموال والخيول والأبقار، والإبل، والقمح، والشعير ما لا يحصى بمراد إلا له سبحانه وتعالى، وبنى دولة رخاء، فمن جملة ذلك كانت

¹ ناصر الدين سعيدوني : الحياة الأدبية في قسنطينة (خلال الفترة العثمانية)، بحث مقدم لنيل شهادة الماجستير في الأدب الجزائري القديم ، إشراف الربيعي بن سلامة ، قسم اللغة العربية وآدابها (منشورة) ، جامعة الأخوة منتوري ، قسنطينة ، الجزائر ، 2005 - 2006م ، ص 44 .

² Mercier ; OP.CIT. P 236.

³ يحي بوعزيز: المرجع السابق ، ص 62.

البقرة السمينة تساوي 8 فرنكات، والفرد 12، والكبش السمين فرنك والعود المليح الأنيق

بركوب الصبايحية يساوي مائة فرنك والصاغ من القمح يساوي 2 فرنكات، والشعير 1

فرنك، والرطل من السمن نصف فرنك وأقل من ذلك، والعسل مثله والزيت كذلك " 1 .

ومن مآثره أيضا تفجير المياه بالصحراء، وربط الينابيع ببعضها في شبكة من القنوات

المجموعة بكيفية هندسية محكمة العمل، لسقي البساتين والحقول من النخيل أو غيره من

المغروسات والمزروعات، وذلك التوزيع غاية في الإحكام والدقة، وإعتمده المحاكم الشرقية

في تحديد الحقوق وبيان المقادير المائية لسقي كل مساحة²، ولعل أهم مشروع متعلق

بالري قام به صالح باي هو حله لمشكل الري بالجنوب الجزائري عامة وبسكرة خاصة .

لقد اهتم صالح باي بتحسين الزراعة ، وتنمية الإنتاج الفلاحي ، لأن فترة حكمه جاءت

في وقت بدأت موارد القرصنة تتفهرق ، فجعل من الشرق المنطقة الأولى من الإنتاج

الزراعي.

ولقد غلب الطابع الفلاحي على نشاط السكان القسنطينيين مقارنة بما يمارسونه من

صناعة ، فكانت بذلك الزراعة هي المورد الرئيسي الذي يؤمن معيشة غالبية السكان

وأصبحت تربية المواشي حرفة مكملة لزراعة أراضي العرش الجماعية ، وقد اشتهرت

قسنطينة بزراعة الحبوب والبساتين التي تحتوي على مختلف الأشجار المثمرة ومما ساعد

إقليم قسنطينة على وجود هذه الزراعات هو >> الميغاثية الكافية للزراعات اليابسة على

¹ مجهول: مصدر سابق، ص 43.

² عمر المهدي علي بن شعيب: مصدر سابق ، ص 343

التمام ، تستفيد فيما حولها من مجاورة جبال مروية جدا ومن معدل الثلوج الهامة في كثير من الأحيان <<¹.

عمل على استحداث مزروعات جديدة مثل الأرز حاول زراعته بسهول الحامة ، مستعينا في ذلك بنظام ري دائم معتمد على تشغيل النوريات لرفع الماء إلى مشاتل الأرز ، وشجع على غراسة الزيتون بالنواحي المجاورة لقسنطينة ، وحتى يعطي مثلا يقتدي به فلاحو تلك المنطقة ، أنه بادر بزراعة الزيتون في مزرعة خاصة بمنزله الريفي المعروف باسم سيدي محمد الغراب ².

وأمر باستصلاح مستنقعات ضفاف نهر سيبوس بسهل عنابة لاستغلالها في الزراعة ، وحدث خطائر لتحسين نوعية الخيول بمواطن الزمول نواحي عين مليلة ، واستغلال السهول الخصبة القريبة منها .

ونقل جنود الزمالة إلى سهل عين مليلة على طريق باتنة ، وأسكنهم فيها ، وملكهم أراضي خصبة في عين كرشة وبرج الفسقية وأمرهم باستصلاحها لصالح إدارة البايلك ، وهذا ما دفعه إلى إتمام بناء برج الفسقية الذي بدأه قبله أحمد القلي ، لمراقبة أعمال الحرث والحصاد ، وجمع المحصول واستغلال الشعير لعلف الحيوانات ، والقمح للتجارة في

¹ محمد صالح بن العنزي : مصدر سابق ، ص ص 76 - 77 .

² ناصر الدين سعيدوني : دراسات وأبحاث ، مرجع سابق ، ص 61 .

الأسواق وتزويد جنود الزمالة بحاجتهم الغذائية¹.

وبهذا يمكن أن نقول بأن القطاع الزراعي كان مزدهر في عهد صالح باي، وذلك بسبب جهوده الكبيرة للنهوض بهذا القطاع في كل مقاطعات البايك، حتى أنه كان يصدر الحبوب لبعض الدول الأوربية بسبب الفائض والإنتاج الوفير، حيث كان لميناء عنابة دور كبير في تصدير المواد الزراعية مثل القمح حيث يقول نقيب الأشراف «...وكانو النصارى يوسقون القمح والشعير»²، وهذا دليل على إزدهار القطاع الزراعي ببايك الشرق في عهد صالح باي ، حيث جاء في تاريخ بايات قسنطينة (صاحبه مجهول) : «... صاحب حق وعدل ، وكانت تحبه جميع الأوطان،... وكسب من الأموال والقمح والشعير، ما لا يحصى بمراد إلاّ له سبحانه وتعالى»³.

المطلب الثاني : الصناعة والتجارة

أما عن النشاط الصناعي فهو رغم بساطته واعتماده على بعض الصناعات المحلية اليدوية ، وبعض الصناعات المعدنية التحويلية البسيطة ، إلا أنه ساهم بشكل فعال في إنعاش الحركة التجارية للبايك من خلال عميلة التصدير ولهذا نجد صالح باي اهتم

¹ محمد صالح بن العنتري : نفس مصدر ، ص ص 77 - 78 .

² يحي بوعزيز : المرجع السابق، ص 62 .

³ مجهول : المصدر السابق ، ص ص 42 - 43.

بالصناعة ، وشجع أصحابها على اختلاف مهنتهم وحرفهم ، لتتشيطنها لتكون مردودا من موارد الحزينة .

فأصبحت قسنطينة في عهده تعج بالورش المختلفة والأسواق المزدهرة ، فهناك 28 سوقا وسويقة و 21 سباطا (ممر تجاري) ، وسبع تربيعات يتجمع بها صناع النسيج ، و 3 رحيات لعرض السلع ، و 5 أفران للخبز و 27 مطحنة رحي منها لطحن الحبوب ، منها داخل المدينة ، تعالج يوميا ما يعادل 600 قنطار من الدقيق¹ .

شجع صالح باي التجارة الداخلية والخارجية في قسنطينة وأصبحت ملتقى القوافل التجارية التي تجوب أنحاء الشرق الجزائري والقادمة من الجزائر ، وطرابلس وغدامس ، وتونس ، والمغرب الأقصى ، وبسكرة ، وكان البعض منها يضم 200 جمل تشحن بضائع البايك المختلفة الزراعية والصناعية المختلفة إلى الجهات الإفريقية والمشرق العربي .

فعرفت الموانئ البحرية في كل من عنابة ، والقالمة ، و سكيكدة و سطورة ، و القل بعض الإصلاحات وتوسعا ملحوظا ، وهذا ما ذكره صالح العنتري بعبارته : >> هو الذي أسس سكيكدة وشهرها ، وصاروا كل الأجناس يأخذون الوسق منها ، وقد انجرت له من تلك المرسى فوائد عديدة وذخائر ثمينة نفيسة <<² ، التي كانت تصدر إليها السفن

¹ محمد العربي الزبيري : التجارة الخارجية للشرق الجزائري في العهد العثماني (في الفترة ما بين 1792 - 1830م) ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 1968م ، ص 142 .

² محمد صالح بن العنتري : مصدر سابق ، ص 78 .

والمراكب التجارية والأوربية ، من ايطاليا وفرنسا وتتم بينها وبين البايلك المبدلات التجارية ، التي وضع عليها صالح باي وكلاء للمراقبة واستخلاص الضرائب .

المطلب الثالث : تنظيماته الإدارية

كانت سياسة صالح باي في فرض الضرائب تختلف عن سابقه من الدايات الذين كانوا يعتمدون على القوة والغارات لجلبها ، بينما اتخذ صالح باي أسلوب اللين والمدارات لفرض ضرائبه وجلبها بل كان يخرج بمحلته إلى مكان قريب من مضاجع القبائل ويعسكر بها ثم يرسل الشواش والصبايحية لكي يأتوا الضرائب المفروضة من خيل وبغال وبقر وغنم ودرهم¹.

وتمثلت كذلك سياسته بالخصوص في فرضه ضريبة موحدة على الأرض عرفت بضريبة (الجبري) وهي تساوي اثني عشر صاعا من القمح وما يعادلها من الشعير مع عشر شبكات من التبن.

عوض الضرائب المختلفة التي أثقلت كاهل الفلاحين وأنقصت من الإنتاج وحدث من عوائد الخزينة وبمقتضى هذه الضرائب قسم البايلك إلى قسمين : شرقي وغربي يفصل بينهما وادي الحمام ، ويشرف على كل قطاع قائد جبري الذي يخضع بدوره لقائد الدار

¹ مجهول : مصدر سابق ، ص 09 .

بقسنطينة ويتقاضى هذين الفائدين مقابل قيامها بهذا العمل ضريبة إلزام مقابل قيامهما
بجولتين في العام إحداهما في الخريف لمراقبة أعمال الحرث والأخرى بعد الحصاد
لاستخلاص ضريبة الجبري¹ ، ويقوم بمساعدته شيوخ الدواوير، وقياد النواحي ، وفرسان
المخزن ، ومن إيجابيات هذا النظام هو أنه لا يتطلب عدد كبير من الموظفين ، ويعطي
أيضا فكرة واقعية عن مردود الضرائب مسبقا ، كما أنه يشجع الفلاح على الإنتاج² .
إن فقد عرف بايلك قسنطينة في عهد صالح باي ، نمو اقتصاديا معتبرا ، بفضل
تشجيعه للتجارة الداخلية والخارجية وقام بإعادة تنظيم الضرائب مما كان له انعكاسات
إيجابية على وضع السكان الاقتصادي والاجتماعي وربما عد هذا العمل من العوامل التي
شجعت مختلف القبائل على دفع نصيبها من الضرائب ، وقد ترتب على الوضع استتباب
الأمن والاستقرار³ ، فكانت فترة حكمه من أزهى الفترات التي عرفتها المنطقة، لما تميز به
من حكمة في القيادة، وكذلك السلام والأمن الذي عمّ المنطقة بفضل إخماد الثورات التي
كانت قائمة ، وذلك بإتباع سياسة سار على نهجها طيلة فترة حكمه ، وهي سياسة تعتمد
على القوة والحكمة⁴ .

¹ ناصر الدين سعيدوني : دراسات وأبحاث ، مرجع سابق ، ص ص 68 - 69 .

² قلة قشاعي : النظام الضريبي بالريف الفلسطيني ، ر. ماجستير ، الجزائر 1989-1990م ، ص 50 .

³ ازرقى شويتام : المجتمع الجزائري وفعالياته في العهد العثماني (1529-1830م) ، ط1 ، دار الكتاب العربي ، الجزائر ، الجزائر ، 2009م ، ص 282 .

⁴ عزت عبد الحليم : العثمانيون في غربي المتوسط ، ج1، دار الميعاد ، أنقرة ، 1999م ، ص 41 .

